منهج عبد القاهر الجرجاني
في تعامله مع البديع
دراسة تأصيلية لنقض تقسيم البديع ورده

تأليف

د. عبد العزيز بن صالح بن عبد العزيز العمَّار

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية في الرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد

فالغرض من هذه الدراسة الوقوف مع علم البديع وقفة تمحيص وتدْقيق في بعض مسائله التي شاعت وذاعت ، وسار عليها كثير من البلاغيين قديماً وحديثاً في مؤلَّفاتهم ومباحثهم ، وكأنَّ تلك المسائل أمور متَّفقٌ عليها ، أو مُجْمعٌ على صحتها، مع أنَّ كثيراً منها لا تثبت لها حُجَّة ، ولا ينهض لها برهان ، ويتلاشى كثير من تلك المسائل تحت مجهر البحث العلمي.

ولستُ منفرداً بهذا القول ، أو بدْعاً فيه ، فَثَمَّةَ لفيف من العلماء ذكروا أنَّ بعضاً من مسائل البديع بحاجة إلى معاودة النظر فيها تدقيقاً وتمحيصاً ، دون التسليم بها على الإطلاق، أو قبولها دون النظر فيها ، ومن أولئك الدكتور أحمد محمد علي ، يقول في مقدمة كتابه (دراسات في علم البديع) : ((كان الهدف هذه المرَّة أن أُقَدِّم دراسة لمسائل هذا العلم ، تقوم على غربلة المقولات السابقة ، ابتداء من ابن المُعْتَزِّ وانتهاء بمدرسة التَّلخيص ؛ عسى أن تجلوها مما علاها من هذا الجمود ، الذي أصابها ،وترتفع بها إلى المكانة التي تستحقها في البلاغة العربية)).[1]

وكذلك الدكتور عبد الواحد علام يقرر هذه الحقيقية ويعيد طرحها وتأكيدها ، يقول: ((وتلك أحكام نحن أحوج ما نكون الآن إلى إعادة النظر فيها مرات ومرات على أن نكون على ذكر أبداً من ضرورة تخليص البديع من شحمه ودمه ، والنظر إلى فنون الجادَّة في أرقى النَّماذج التي بين أيدينا)).[2]

---

(١) دراسات في علم البديع : ٤، د. أحمد محمد علي ، مطبعة الأمانة ، مصر ، ط:١٤٠٦،١هـ

(٢) البديع المصطلح والقيمة : ١٦٣ ، د. عبد الواحد علام ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٩٢م.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة ؛ للوقوف مع قضية مهمة في علم البديع؛ لمعالجتها ، والنظر فيها ، والحكم لها أو عليها ، وتلك القضية هي : تقسيم الفنون البديعية إلى محسِّنات معنويَّة وأخرى لفظيَّة ، فسأنظر في هذه المسألة ، نظرة تدقيق وتأصيل ، مبيِّناً منشأ هذا التقسيم ، وخطره على البلاغة العربية ، وعلى الفنون البديعية على وجه الخصوص.

وسيكون مرجعي في هذه الدراسة ومنطلقي هو : ما كتبه عبد القاهرة الجرجاني وقرره في كتابيه (أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز) فيما يتعلق بالبديع ، وفي طريقة تناوله لهذا العلم، ولا غرو أن يكون عبد القاهر الجرجاني المنطلق والأساس لهذه الدراسة؛ فهو شيخ البلاغيين ، ولا تخفى منزلته في سماء العربية وعلومها ، كما أنه المرجع والأساس في كثير من القضايا البلاغية ، فإليه يفزع البلاغيون ، وعنه يصدرون ، والأمر كذلك في هذه الدراسة.

وسأناقش هذه القضية مناقشة علمية جادة كما أرجو أن تكون صادقة شجاعة تقول ما تقتنع به وتراه وترفض ما عدا ذلك وتردُّ من الأمور التي عفا عليها الزمن ، وترفض التسليم المطلق لكل شيء أو الاتباع الأعمى لما يقوله الآخرون.

وسأتناول هذا الموضوع من جوانب عدة ، وزوايا متعددة ؛ لبيان ما في هذا التقسيم من قصور وخطل ؛ بل وخطر على البلاغة العربية ، سيكون منطلقي في هذه الدِّراسة : الإشادة بمنهج عبد القاهر الجرجاني في التعامل مع علم البديع ، وفي بيان طريقة تناوله له وفي بيان هذا المنهج إضاءات مهمة ، وإشارات بالغة الأهمية ، تضيء لنا الدرب ، وتبيِّن لنا المَهْيَع الصَّحيح في التعامل مع علم البديع الذي ينبغي أن نتَّخذه ونسلكه ، وتبني لنا الدعائم والأسس التي ينبغي أن يقوم عليها علم البديع.

ولا يخفى أنَّ في تحقيق هذه الغاية مشقَّة وصعوبة ؛ ولكن لابُدَّ من تذليل الصِّعاب ، وخوض الغَمَرات ، واقتحام العَقَبات؛فإن المستشرق عزيز ، والغاية نبيلة.

ومن ذا يحيط بما كتبه عبد القاهر ، أو يدرك كُنْهه ، ويسبر غوره ، ولكن استعنت بالله أولاً ، وعاودت قراءة ما كتب في ذلك مرات ، أقرأ ذلك بتمعُّن وتأمُّل ، وإطالة نظر وتدبر ، كما ،أنى أفدت كثيراً مما كتب العلماء فى ذلك ورجعت إليه ولذا نسأ سعى جاهدا لإبراز جهد عبد القاهر ، وما أكثر جهوده فى علم البديع وفى بيان طريقته في تعامله عه ، وسأسلِّط الضوء في ذلك على ما يخدم هذه الدراسة ، وهو أمر تقسيم البديع إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية.

والله اسأل أن أوفق في هذه الدراسة، وان أهدى فيها إلى وجه الحق والصواب، وأن يجنبني الزلل والتعصب ، والقول فيما لا أحسنه.

تعريف المحسنات المعنوية وضابطها:

يحسن في بداية هذه الدراسة وصدرها أن أذكر المقصود بالمحسنات المعنوية ، والمحسنات اللفظية المراد مناقشتها في هذه الدراسة ؛ لنكون على بيِّنة من أمرنا ، وللوقوف على مافى ذلك من قصور وخطل.

فالمراد بالمحسنات المعنوية – كما يذكر البلاغيون :- هي التي يكون التحسين فيها راجعاً إلى المعنى أولاً وبالذات ويتبعه تحسين اللفظ ثانياً وبالغرض[١]، ولبيان هذا التقسيم وإيضاحه ذكروا أن علامة هذا القسم : أن الألفاظ المتضمن هذا المحسِّن المعنوي لو غُيِّرت بما يرادفها أو يقرب من معناها لبقي ذلك المحسن كما كان قبل التغيير.[٢]

تعريف المحسنات اللفظية وضابطها:

واما المحسنات اللفظية : فهي التي يكون التحسين فيها راجعاً إلى اللفظ أولاً وبالذات ، ويتبعه تحسين المعنى ثانياً وبالعرض[٣] ، وعلامة هذا القسم : أن الألفاظ لو غيرت بألفاظ أخرى – ولو كانت قريبة منها لزال ذلك المحسن البديعى ، واختفى من الكلام[٤].

هذا التقسيم للبديع، وعلامة كل قسم هو محلُّ هذه الدراسة ، وجوهرها ، فسأقف مع هذا التقسيم وقفة طويلة تأمليه ، أبين خطأ هذا التقسيم وخطره على

---

(١) انظر : الإيضاح : جـ٤ ص٣ – ٤/٣ الخطيب القزوينى ، مكتبة إحياء الكتب الإسلامية ن بيروت.

(٢) انظر : علم البديع : دراسة تأريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع : ١١٤ ، د. بسيونى عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار ، القاهرة ١٤١٨هـ

(٣) انظر : الإيضاح : ٣/٤ ، البلاغ الاصطلاحية : ٣٠٦ ، د. عبدة عبد العزيز قلقيلة ، دار الفكر العربى القاهرة.

(٤) انظر علم لبديع ١١٤.

البلاغة العربية، وروحها الأدبية وسأبين خلال هذه الدراسة سبب رفضي لهذا التقسيم، وردي له.

أسباب ردِّ هذا التقسيم :

وثمة أمور عدة توافرت وتضافرت فيما بينها لرد هذا التقسيم ورفضه ، ولعل من أبرز هذه الأمور وأهمها :

١- أن هذا التقسيم لا يمت للبديع بصلة ولا بسبب، فليس بين هذه التقسيم وبين التعريف اللغوي ، وكذلك التعريف الاصطلاحي ارتباط ولا صلات.

التعريف اللغوي للبديع :

حين ننظر في معنى البديع ودلالاته اللغوية نجد أنها تدل على الإنشاء والابتكار على غير مثال سابق له ، ولا مثيل ، فبدع الشئ بدعا وابتداعه أنشأه وبدأه ، ومن ذلك قولهم : بدع الركية : أى استنبطها وأحداثها ، وركي بديع:أى حديثه الحفر[١] ، على هذا المعنى اللغوي جاء استخدام القرآن الكريم للفظة :"البديع" ، ومن ذلك قوله – تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢]، المعنى : أن الله – سبحانه وتعالى – قد أنشأهما وخلقها على غير مثال سابق، يدل على هذا المعنى –أيضاً– قوله – تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ﴾[٣]، والمعنى: ما كانت أول من أرسل ، فقبلي سل كثير أرسلوا ، إلى أقوامهم.[٤]

---

(١) انظر مادة : بدع ، لسان العرب ، لابن منظر ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٣هـ.

(٢) البقرة : ١١٧.

(٣) الاحقاف : ٩.

(٤) انظر : البديع تأصيل وتجديد : ١١ ، د منير سلطان / منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٦م.

وعل هذا المعنى ورد استخدام لفظة البديع في الشعر العربي ، يدل على ذلك قول حسان بن ثابت[١] :

قومٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُـــمُ أو حاولوا النَّفْعَ في أشياعِهِم نَفَعُوا

سَجِّيَّة تلك منْهُم غَيْرُ مُحْدَثَـــة إنَّ الخلائِقَ فاعْلَمْ شَرُّها البِـــدَعُ

والمعنى : أن هذه الصفات الكريمة ثابتة في أصولهم ، راسخة في عروقهم ، ليست محدثة ، أو طارئة عليهم ، وذلك أنَّ شرَّ الخلائق ، وأرذل الصفات هي : التى تكون جديدة محدثة في قلب الإنسان[٢].

ومن ذلك – أيضاً :- الإبداع فى الفنون والآداب ، وذلك: أن صاحبه خال من المحاكاة، ومحاذاة من تقدمه فهو مبدع ، وعمله الذي جاء به مبدَع.[٣]

ومن خلال ذكر هذه المعانى اللغوية وتأملها يتبين لنا المفارقة التامَّة بينها وبين تقسيم البديع ، بل إن هذا التقسيم يقوم على نقض هذه المعاني وأضدادها ، وذلك أن في التقسيمات،وكثرة التفريعات جنوحاً وبعداً كل البعد عن البديع بمعناه اللغوي، فهل تحمل هذه التقسيمات في طياتها إبداعاً وابتكاراً وتجديدا؟ بل هى بعيدة كل البعد عن ذلك فهى سبب رئيسى فى قتل الإبداع والابتكار ومن هنا تتبين المفارقة التامة بين المعنى اللغوي للفظة البديع ، وبين هذا التقسيم.

التعريف الاصطلاحى للبديع :

---

(١) انظر ديوانه : ٢٣٨ ، تحقيق د. سيد حنفى حسين ، دار المعارف ، مصر.

(٢)انظر : البديع في ضوء أساليب القرآن : ٥ ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ط : ٥ ، ١٩٩٧م.

(٣)انظر : البديع من المعانى والألفاظ : ٥ ، د. عبد العظيم المطعنى ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ط : ٣ ١٤١٠هـ

كما لا يمت هذا التقسيم إلى التعريف الاصطلاحى بسبب ولا صلة ، فقد عُرف البديع في اصطلاح البلاغيين بأنه ((علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقة على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))[1]. فتأمل هذا التعريف مراراً وتكراراً ، وأمعن النظر فى دلالالته متدبراً فلن تجد الإشارة ولا حتى الدلالة على هذا التقسيم : إذا الغرض من البديع تحسين الكلام وتزيينه ، فهو يكسبه حسناً وجمالاً، كما أنه يضفي عليه بهجة وراء ، فيظهر من خلال فنون البديع بأبهى حُلَّه ، وأجمل صورة ، وهل تقسيم البديع الى معنوي ولفظي يحسِّن الكلام ويجمله؟ أم هو يرهق كاهله ويُقَبحِّه؟ بل هو سبب رئيس في القضاء على هذا الجمال وعرضه في أشين صورة وأقبحها.

وهكذا يتبين لنا من خلال وقوفنا مع البديع فى اللغة والاصطلاح أن هذا التعريف يخلوا تماماً من الإشارة الى هذا التقسيم ، بل إن التعريف البديع بما تضمنه من دلالات وإيحاءات يخالف هذا التقسيم من أساسه ، بل ويناقضه فى أهدافه وغاياته ، ولقد أكد هذه الحقيقة وقررها الدكتور عبد الفتاح عثمان ، يقول في ذلك((إنه لم يكن يراد بكلمة (بديع) معناها الاصطلاحى الفنى الذى نعرفه اليوم من الدلالة على المحسنات اللفظية والمعنوية فى التعبير الأدبي ، وإنما كان يراد بها معنى عاماً يتمثل في الإنشاء والابتداء وكل معنى جديد مبتكر لم يُسبق إليه))[2].

٢- ليس لهذا التقسيم وجود في عصور ازدهار اللغة :

ومن الأمور المهمة في رد هذا التقسم ورفضه ، أن هذا التقسيم لم يكن له وجودفي عصور ازدهار اللغة وتألقها ، فى العصور الأولى التي عاشت البلاغة فيها أَوْجَ

---

(١)انظر: الإيضاح ٢/٤.

(٢) دراسات ي علم المعاني والبديع : ١٥٥ ، د. عبد الفتاح عثمان ، مكتبة الشباب ، القاهرة.

عطائها ، وقمّة توهجها ، فقد تمّ تناول البديع في هذه الحقبة- شأنه فى ذلك شأن بقية الأساليب البلاغية الأخرى – بروح أدبية ، تعتمد على الذوق ، وتنطلق منه ، وتقوم على تحليل النصوص والشواهد ؛ لبيان ما فيها من مواطن الجمال والإبداع من خلال النظرة الشمولية لها في سياقها الذي وردت فيه فى أشرها وتأثيرها فى نظم الكلام وتراكيبه ، وفى مدى تلاحمها وترابطها فيما بينها.

وهكذا كان البديع في هذه الحقبة ، وهكذا عاش ، وهكذا كانت النظرة إليه ، وهكذا تم التعامل معه شأنه في ذلك شأن الأساليب البلاغية فقد كانت هذه الفنون البلاغية منذ أن كتب فيها العلماء حرة طليقة ، لا تعرف تقسيماً ، ولا تتقيد بكثرة المصطلحات والاحترازات.

البديع عند عبد القاهرة الجرجانى:

يؤكد هذه الحقيقة ويقررها صنيع عبد القاهر الجرجانى في كتابيه "أسرار البلاغة" ودلائل الإعجاز" من خلال نظرته للبديع وتعامله معه ، وطريقة طرحه لفن البديع وتناوله له، وسأتناول موقف عبد القاهر من البديع بالتفصيل؛ للوقوف على منهجه في نظرته للبديع ، وطريقة تعامله معه وهذا الأمر من الأهمية بمكان ؛ فهو محور هذه الدراسة وعمودها ، إضافة إلى ان موقف عبد القاهر من البديع ومنهجه في التعامل معه هو السبب الرئيس في رفضى لتقسيم البديع ؛ لأن طريقته في التعامل مع البديع هي الطريقة المثلى ، فقد حدد المعالم ، وبيّن المنهج ، وعلينا أن نترسم خُطا هذا المنهج ونقتفي أثره في دراستنا البلاغية بعامة ، وفي علم البديع بخاصة.

إنَّ مَنْ ينظر في كتابي عبد القاهر "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" يجد فيهما كثيراً من الإشارات والوقفات المتعلّقة بعلم البديع ، ولم تكن هذه الإشارات ، وتلك الوقفات مجموعة في موضوع واحد ، أو في صفحات محصورة أو محددة بدءاً وانتهاء،

شأنه في ذلك شأن بقية الموضوعات التي يتناولها ، وهو في ذلك ينزع من منهج قرآني، وهو منهج التَّصريف فى تناول الموضوع الواحد كما قال تعالى:﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[١]، وهو منهج فريد يحسب له؛ دلالة على تمكنه واقتداره ، وتعدد الرؤى لديه للموضوع الواحد وتعدد التناول – كذلك – وتنوعها للموضوع الذى يشغل باله ، ويلحّ عليه.

<u>ملامح البديع عند عبد القاهر الجرجاني :</u>

ومن خلال قراءة ما كتبه عبد القاهر في البديع ، والوقوف معه وقفة تأمل وتدير يتبين لنا :

أن تناول عبد القاهر لعلم البديع جاء مقتضبا موجزا ، فلم يأخذ ذلك مساحة واسعة من كتابيه، فبالإمكان حصر ذلك وجمعه فى وريقات معدودة ، بل إن تناوله لهذا العلم لم يكن مقصوداً لذاته ، بل جاء ذلك عَرَضَاً في سياق تدليله وتأسيسه لنظرية النَّظم ، فذكر من البديع وفنونه ما يخدم غرضه ذلك ويحققه ، وقد أشار جمع من العلماء إلى هذا الأمر، بل وأثنوا على عبد القاهر بذلك ، ومن هؤلاء الدكتور : عبد الواحد علاّم ، يقول: ((لقد تناول عبد القاهر من ألوان البديع ما رأى أنه يعمل على تحقيق الهدف الذي يسعى إليه في كتابيه ، وهو هدف لم يعد خافياً الآن بعد تلك الكتابات الكثيرة حول نظرية عبد القاهر فى النظم التى جعلها أساس فن القول دون اعتبار أي شئ آخر مما هو خارج عن دائرة النظم)). [٢]

---

(١) الكهف : ٥٤.

(٢) البديع : المصطلح والقيمة : ٥٨.

يؤكد هذه الحقيقة ويقررها أيضاً الدكتور عبد العزيز عتيق قائلاً :

((وأمّافنون البديع فلم ترد عند عبد القاهر إلا بالقدر الذى تطلبته أوجه الاستدلال على نظريته في النظم ، القائلة بأنَّ جمال الكلام يكمن في نظمه وأسلوبه)).[1]

وإن هذا الملحظ من الأهمية بمكان ، وله دلالته البالغة في تعاملنا مع البديع، وفى نظرتنا له ، وفى قيمته الأسلوبية ، ومن هنا : جاء البديع فى كتابى عبد القاهر وفق هذه النظرة ، ومتوافقاً مع متطلبات دعمه لنظرية النظم ، وتأصيله لها.

يؤكد هذه الحقيقة كذلك حديث عبد القاهرة عن الجناس والسجع ، وهما من أبرز المحسنات اللفظية في تقسيم البلاغيين لعلم البديع ، بيد أن عبد القاهر أعرض عن ذلك ، وضرب عنه صَفْحاً ، فجاء تناوله لهما فريداً بديعاً ، ولذا فإنى سأذكر كلامه نصاً فى ذلك ، وسأنقله مع طوله ؛ ليتسنى لنا الوقوف عليه ، ولنتمكن من إمعان النظر فيه ، والغوص في دلالاته ، والجنوح مع مراميه وإشاراته ؛ لأن فيه كثيراً من الدلالات المهمة ، والإضاءات الكاشفة لنا فى نظرته للبديع ، وفى تعامله معه.

البديع في كتاب (أسرار البلاغة):

أول أمر يستوقفنا في ذلك : أن حديثه عن السجع والجناس جاء فى أول كتابه (أسرار البلاغة)،ونحن نعلم أن هذا الكتاب سابق فى الوجود والتأليف لكتاب (دلائل الإعجاز)، والأمر الأخر – وهو من الأهمية بمكان :- أن حديث عبد القاهر عن السجع والجناس جاء مسبوقاً بحديثه عن اللفظ والمعنى ، وفى هذا إشارة من طرف خفي لرفض عبد القاهر لهذه الثنائية البغيضة فى نقدنا العربى ، وهى قضية

(١) فى تأريخ البلاغة العربية : ٢٥٣ ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت.

اللفظ والمعنى ، بل حربه عليها ، وهدمه لها ، فقد نحا باللائمة على أنصار كل فريق منهما ، مُبيِّنا عوار هذه القضية ، وخطل شأنها على بلاغتنا العربية ، ولذا نقضها عُرْوةً عُرْوةً ، ومن ثَمَّ أقام على أنقاضها نظرية النظم.

وقد أشار عبد القاهر إلى هذه القضية وأكدها قبل حديثه عن التجنيس ، يقول: ((ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة ،والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ ، كيف؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التراكيب والترتيب، فلو أنك عمدتَ إلى بيت من الشعر ، أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني ، وفيه أفراغ المعنى وأجري ،وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في (قِفَا نَبْكِ منْ ذِكْرىَ حَبيبٍ ومَنْزِلِ): منزل قفا ذكرى من نبك حبيب ، أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان ، نعم ، وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ،ونسب يختص بمتكلم)).[1]

وهذا النص الذي استفتح به عبد القاهر حديثه غني الدلالة ، مُفْعَم بالإشارات، وملئ بالإضاءات فقد أكَّد ما ذهب إليه عبد القاهرة وتوصل إليه في أن مَرَدَّ الفضل والمزيَّة إلى النظم وليس إلى شيء سواه ، فلا الألفاظ وحدها تنفرد بالفضل ، ولا المعانى كذلك تستقلُّ بالكمال دون أختها، بل هما معاً يظهران فنية القول وجماليته. ومن هنا يتبين السرُّ فى افتتاح عبد القاهر كتابه (أسرار البلاغة) بالحديث عن اللفظ والمعنى ، فهو يقصد من ذلك القضاء التامَّ على هذه الثنائية ، وأن يَرُدَّ رداً مباشر

---

(١) أسرار البلاغة : ٤ ، عبد القاهر الجرجانى ، قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى القاهرة ط:١ ، ١٤١٢هـ

وغير مباشر على أنصار كل فريق من الفريقين ، ولذا فقد حمل عبد القاهر على عاتقه هدم هذه القضية برُمَّتها ونقضها ، بل ورد على ما يتعلق بها ويمت لها بسبب من قريب أو بعيد.

ومن هنا فإنه فى تناوله للمحسنات البديعية – وإن كانت قليلة – فإنه لم يتعرض إلى تقسيمها إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية ، ولو فعل ذلك لكان متناقضاً مع نفسه كلَّ التناقض ، ولهَدَمَ كلَّ ما بنى ، ولكنه نأى بنفسه وقلمه عن ذلك فجاء تناوله للبديع تناولاً بديعاً متميزاً منفرداً.

ولذا فإن من يقسم البديع إلى محسنات معنوية ،وأخرى لفظية فإنه بصنيعه هذا – شَعَرَ أم لم يشعر – يعود بنا على قضية اللفظ والمعنى ، ويعود بنا إلى ذلك الفِصَام النَّكد بين كل واحد منهما ، بعد أن تمّ القضاء التام عليها على يد عبد القاهر ، ومن هنا يتجلى خطل هذا التقسيم على بلاغتنا العربية ، بل وخطره على البلاغة فى أرقى كمالاتها ، وأعلى أساليبها ، وهى البلاغة القرآنية ، وبلاغة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومما يستوقفنا فى صنيع عبد القاهر مع البديع ، وتعامله معه أنه بعد فراغه من الحديث عن اللفظ والمعنى في صدر كتابه (أسرار البلاغة) بعد ذلك مباشرة تحدث عن التجنيس والسجع ، وفى ذلك كثير من الدلالات المهمة التى تهمنا وتعنينا فى رفض تقسيم البديع الى محسنات معنوية ، وأخرى لفظية ، ولا يخفى أن هذين المحسنين (التجنيس والسجع) من أبرز المحسنات اللفظية فى تقسيم البلاغيين لعلم البديع ، بيد أن عبد القاهر أعرض عن ذلك، وضرب عنه صفحاً ، فلم يشغل باله وقلمه فى هذا التقسيم ، بل تجاوز ذلك إلى ما هو أجدى وأنفع للبلاغة العربية ، ولذا جاء تناوله لهما فريداً بديعاً ، وقد استفتح ذلك بقوله: ((وههنا أقسام قد يتوهم فى

بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل النفس ، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك، منها : التجنيس ، والحشو)).[1]

فالتجنيس وهو من أبراز المحسنات اللفظية وأشهرها يقرر عبد القاهر جازماً قاطعاً أن حسن هذا المحسِّن ، ومرَدَّ جماله يتعدى حدود اللفظ والجرس ، بل يتجاوز ذلك إلى الإشارة بأنَّ فيه ما يناجي العقل النفس،ولك أن تتأمل لفظة (المناجاة) وتغوص في دلالاتها ومعناها ؛ لتدرك عمق ارتباط هذا المحسن بالمعنى ، والتصاقة به، فأنى لمن يرى تقسيم البديع ويأخذ به أن يُصنف هذا المحسن (التحنيس) إلى المحسنات اللفظية ؛ لأن مكمن الحسن – في زعمه– راجع إلى اللفظ أولاً وبالذات ، ثم يأتى المعنى تبعاً وذيلاً؟! ولذا فإنَّ أخذنا بهذا التقسيم، وتسليمنا به فيه دلالة على بعدنا عن كلام عبد القاهر ، وعدم فهمنا له، وتمثلنا بأفكاره وآرائه.

وقد جاء تناول عبد القاهر لفن التجنيس متوافقاً مع رفضه لهذا التقسيم ، ولذا فإن من يتأمل كلامه ، ويمعن النظر فيه فسيدرك أنه ينقض دعوى انتساب التجنيس إلى اللفظ دون المعنى ، بل ويرفض ذلك رفضاً قاطعاً ، وقد أشار إلى ذلك من خلال حديثه عن التجنيس متى يحسُن ،ومتى يحسن ، كما أن أبا فهر محمود شاكر – رحمة الله – محقق كتابى عبد القاهر كان على وعي تام ، وعلى قدر كبير من الفطنة ، والفهم لكلام عبد القاهر ، فقد وعى ذلك عن عبد القاهر ، واستوعبه أتم استيعاب ، ولذا فقد عنون لكلام عبد القاهر بقوله (التجنيس لا يحسُن إلى مع المعنى)، يقول عبد القاهر : (أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا

---

(١) أسرار البلاغة :٦.

كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما بعيداً

أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله:

ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالتَوتْ   فيه الظُّنونُ أَمذْهَبٌ أم مُذْهَبُ

واستحسنت تجنيس القائل :

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقول المحدث:

نَاظِراه فيما جَنَى ناظِراه   أو دَعَاني أَمُتْ بما أَوْدَعاني

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول ، وقويت في الثانى ، ورأيتك لم يزدك (بمَذْهَب ومُذْهَبُ) على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوُهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفَّاها ، فبهذه السريرة صار (التجنيس) وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة من حلى السعر ، ومذكوراً في أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتمّ إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن ، ولما وُجد فيه معيب مستهجن ، ولذلك ذُمَّ الاستكثار منه والولوع به.

وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ اللفاظ خدم المعاني، والمصرفة في حكمها وكانت المعاني هي المالكة سياستها ، المستحقَّة طاعتها ،

فمن نصَرَ اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشئ عن جهته وأحاله عن طبيعة ، وذلك مظنة الاستكراه وفيه فتح أبواب الغيب والتعرض للشَّيْن))[1].

وفي هذا الكلام من عبد القاهر الإشارات البالغة التي تخدم غرضنا في ردِّ تقسيم البديع ونقضه من خلال اتكاء عبد القاهر على المعنى ، وحفاوته به ، وإبراز أهميته وأثره في مثل هذه الأساليب التي يرى المتأخرون أنها تنتمي إلى اللفظ أولاً وبالذات.

فقد كرَّر عبد القاهر وقرَّر ، وأبدأ وأعاد في بيان أثر المعنى ، وفي تطلبه لهذا الأسلوب، وأستدعائه له ، ولكي تكون على يقين من ذلك وبينة فعليك بتكرار قراءة ذلك النص مرات ومرات ، عاود القراءة ، ولا تضجر من معاودة القراءة وتكرارها ، فإن في ذلك نفعاً عظيماً ، وفتحاً لعقلك وفهمك ، وسيفتح لك النص ودلالاته شيئاً ، فشيئا وتأمل الكلمات التي وضعت تحتها خطاً[2] فستجد فيها الدلالة البيِّنة، والإشارة الواضحة من عبد القاهر إلى أهمية المعنى ، وإلى شديد أثره في مثل هذه الأساليب.

ولا يقف عبد القاهر عند هذه الغاية ، أويقنع عند هذا الحد بل يعاود طرح القضية، ويلحُّ عليها ، مُبيِّناً أثر المعنى ، وشدة ارتباطه بفن التجنيس والسجع والتصاقه بهما ، وفي ذلك يقول: ((وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا

---

(١) أسرار البلاغة :٧.

(٢) أسرار البلاغة : ٦ ، آثرتُ أن أضع خطاً تحت بعض الكلمات ؛ إشارة إلى أهميتها ، ولفت الذهن إليها ، كما أنَّ في هذا اقتدا بصنيع أبي فهر مع كلام عبد القاهر ؛ للدلالة على أهميته ، ولشدِّ الانتباه ، ولفتِ الذهن ، كما أن في ذلك تجنباً للإطالة والتكرار.

تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حِوَلاً ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاده ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطبله.... فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضي اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع بل قاده المعنى اليهما ، وعثر به عليهما ، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى ، وإدخال الوحشه عليه ، فى شبيه بما يُنسب إلى المتكلف للتجنيس المستكرَه ، والسجع النافر ، ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولاً وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان وأجلب للاستحسان من أن تُرسل المعاني على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنّس أو تسجع بلفظين مخصوصين ، فهو الذي أنت منه بعرض استنكاراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم،فإن ساعدك الجَد كما ساعد في قوله (أو دعاني بما أودعاني) ، وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله: ﴿وأَجْدْتمُ من بَعْد إتْهامِ دَارِكم فيادَمْعُ أَنْجِدْنِي على سَاكِنِي نَجْدِ﴾

وقوله : هُنَّ الحَمامُ فإنْ كَسرتَ عيافةً من حَائهنّ فإنهنَّ حمامُ

فذاك ، وإلا أطلقت ألسنة العيب ، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب إلى أفحش الإساءة ، وأكبر الذنب ووقعتَ فيما ترى من ينصرك ، لا يرى أحسن من لا يرويه لك ، ويود لو قدر على نفيه عنك))[1].

(١) المصدر السابق: ١١.

وفي هذا النص كثير من الروائع والإبداعات من عبد القاهر ، التي ينغي أن نعنى بها، وأن ننصرف إليها في تعاملنا مع التجنيس والسجع ، وهو بهذا يرسم لنا المنهج ، ويبين السبيل الذي ينبغي أن نسير عليه ، ونسلكه في تعاملنا مع البديع.

ولذا فإن مَرَدَّ الفضل ، ومَكْمَن المزية في استخدام هذه الفنون وغيرها هو : عدم الإسراف فيها ،والتكلف في استخدامها ، فما أحسن أن تأتي عفو الخاطر ، بلا كدٍّ للذهن ، ومن غير تصنع ، و لاقسر للألفاظ ، وإنما حين يأتي طيعاً سمحاً تطلبه المعنى ، واستدعاه المقام ، ولذا فسيكون له الأثر البالغ في نظم الكلام وتراكيبه.

وحين يكون التجنيس والسجع كذلك وبهذه الصورة فسيقع موقعه الحميد اللائق به، وسيبذل منزلة الجدير به ، ولذا فعبد القاهر يرمي بالملامة على من أسرفوا في استخدام البديع، وتكلفوا فيه أشد التكلف ، مشيراً إلى هذا التكلف مفسدة للمعنى أي مفسدة ؛ وذلك أن المعاني – كما ذكر – لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه.

وفي ذلك رد على من جعلوا التجنيس محسناً لفظياً يتعلق باللفظ أولاً وبالذات، ففي ذلك مخالفة بينة لكلام عبد القاهر الذي بيّن كما رأينا ((أن التجنيس ليس حلية لفظية فارغة من المعاني ، وإنما حسُن التجنيس في مطابقة اللفظ لتمام معناه ويؤكد مرة أخرى أنه ليس من أنصار اللفظ ، وليس من أنصار المعنى ، وإنما هو من أنصار النظم)).[1]

ولذا فقد أبان عبد القاهر وقرر – حين عرض للتجنيس والسجع – أن مكمن الحسن فيهما ، ومرد جملهما لا يرجع إلى الألفاظ من حيث هي ألفاظ ، وإنما يرجع

---

(١) البديع وإعجاز القرآن : ٦٢ ، د. محمد أحمد عثمان ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ط:١ ،١٤١١هـ

إلى أمر كامن فيهما وهو ترتب المعاني في الذهن ترتبا يؤثر في النفس ، ويأخذ باللباب والوجدان ، ومن ثم تأتي الألفاظ بناء على ذلك المعنى المراد تحقيقه وتقريره.(١)

وهي لفتة رائعة من عبد القاهر حين أشار إلى اثر هذا المحسِّن في بناء المعنى وظهوره، وهي فريدة منه وسابقة إذ لم يكن ((أحد قبل عبد القاهر حاول أن يجد تفسيراً معنوياً لهذا الفن الذي هو صوت وجرس ، لكن عبد القاهر بتغلغله وإيغاله حاول أن يلتقط أطياف معاني هذا الرنين ، ولم يذكر ذلك أحد بعده ، إلا من شاموا كلامه ، وراموا رومه)).(٢)

إذن فهذه هي نظرة عبد القاهر لكل من التجنيس والسجع ، وذلك هو منهجه في التعامل مع هذه الفنون فقد سلط الضوء على أثر هذه الأساليب في بناء المعنى، وفي إظهار قيمتها البلاغية من حيث تلاؤمها وانسجامها مع النظم الذي ورد فيه ، ولذا فهو يقرر ويؤكد أن هذا المحسِّن ليس هدفاً ، ولا مقصوداً لذاته ومن هنا قبُح الإسراف فيه ، وذُمَّ التكلف فيه، ولوي أعناق المعاني من أجله.(٣)

بل إن عبد القاهر من خلال نظرته الثاقبه للتجنيس تجاوز هذا ، ولم يقف عند هذا الحد، بل ولم يرضَ لفن التجنيس أن يقف عند هذه الغاية ، ولذا أظهر أثر التجنيس وقيمته في الجانب النفسي ، وتعدُّ تلك منه سابقة وبادرة كما تظهر — كذلك — مدى تمكنه وتغلغله في دراسة أثر هذه الأساليب على الجوانب النفسية ،

---

(١) انظر : في تأريخ البلاغة العربية ٢٥٣.

(٢) مدخل إلى مكتابي عبد الاهر الجرجاني : ١١٦ ، د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ،ط ١ : ، ١٤١٨هـ

(٣) انظر : البلاغة العربية : تأريخها مصادرها مناهجها : ١٣٤ ، د. علي عشري زايد مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨٢.

وقد أشار إلى هذه القضية في معرض حديثه عن غايات التجنيس ، بل جعلها مكمن الغاية ، والعلة في استجابة الفضيلة ، وقد عَنْوَنَ لها بقوله (حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة) ، وإن كان ذلك مقصوراً على بعض صور التجنيس ، وهو المستوفى ، ومن ثم يورد على ذلك عدة شواهد من الشعر إثباتاً لهذه الحقيقة ، وتقريراً لها ومن ذلك قول أبي تمام :

يَمُدُّونَ مِنْ أيدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُوْلُ بأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

ثم يذكر تعليقاً نفسياً على هذا البيت مظهراً أثر هذا الأسلوب على الجانب النفسي ، يقول : ((وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم في (عواصم)، والباء في (قواضب) انها هي التي مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزُلْتَ عن الذى سبق من التخيل ، وفي ذلك ما ذكرتُ لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال.[١]

ولا يخفى أن في الوقوف على مثل هذه المعاني وإدراكها نوعاً من الرضا يحدث في النفس ولا بد، فتهتز لها النفس البشرية ، وتطرب لها وباعث ذلك : هو الظفر بمعنى وفائدة من هذا التجنيس لم يكن السامع يتوقعها ، وحدث خير له لم يكن في حسبانه، ولم يَدُرْ في خَلَدِه أنه يكون.[٢]

موقف عبد القاهر الجرجاني من الجانب اللفظي في المحسنات البديعية:

---

(١) أسرار البلاغة : ١٨.

(٢) انظر البلاغة العربية / تاريخها مصادرها مناهجها: ١٣٥.

وبعد : فهذا جلُّ حديث عبد القاهر عن البديع في (أسرار البلاغة) وقد أتيتُ على معظمه ، ووقفت معه وقفة تأمل وتدبر ؛ للوقوف على دلالاته ، والغوص في إيحاءاته ، وللنظر في منهجه في التعامل مع البديع وقبل أن أنتقل إلى حديث عبد القاهر عن البديع في (دلائل الإعجاز) ، وقبل أن أطوي الحديث عن موقف عبد القاهر من التجنيس والسجع ، وإتماماً لهذا الموضوع ، وإحاطة له من جميع جوانبه ، أذكر هذا السؤال وهو : هل أنكر عبد القاهر أو أغفل الجانب اللفظي أو الصوتي لهذين المحسِّنين : التجنيس ، والسجع؟

وقد حرصتُ على طرح هذا السؤال، والإجابة عنه في هذا المقام ؛ لأنَّ من يقرا كلام عبد القاهر عن التجنيس والسجع قد يظنُّ أنه أغفل الجانب اللفظي والصوتي فيهما، أو أنه لم يحفل بهذا الجانب أو أنه أنكر ذلك تماماً ، وهو أمر مخالف للصواب ، مجانب للحقيقة ، ولذا آثرتُ بيان هذه المسألة وكشفها ؛ لشديد ارتباطها بالموضوع الذي أتحدث عنه ، ولقوة علوقها به.

فأقول: إن عبد القاهر لم يغفل الجانب اللفظي والصوتي أبداً في مثل هذه المحسنات البديعية ،وخاصة في التجنيس والسجع ، فإن الجانب اللفظي والصوتي ظاهر جليٌّ ،فيهما فأنى له أن ينكر ذلك ، أو يتجاهله ، بل هو يحفل بهذا الجانب، ويهتمُّ به اهتماماً :كبيراً، يتجلى ذلك من خلال الوقوف على ما كتبه عبد القاهر في (أسرار البلاغة) وفي (دلائل الإعجاز) ، وفي (الرسالة الشافية) ، فلكي يكون الحكم صائباً شاملاً فلابد من قراءة هذه الكتب كلها ، والوقوف عليها وقفة تأمل وتدبر ، ولقد أشار عبد القاهر إلى حفاوته بالجانب اللفظي ، وقد أعلى من شأنه ، كما أشار كذلك إلى توخي الألفاظ ، وحسن اختيارها وانتقائها في أداءالمعاني والأغراض ، ولقد ذكر ذلك وصرح به في مقدمة "رسالته الشافية" ، يقول: ((اعلم أن

لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى ، وضروباً من العبارة وبتأديته أقوم وهو فيه اجلى، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أدعى ، والنفس إليه أميل)).[1]

وهو نصٌّ صريح في حفاوة عبد القاهر بالألفاظ والاهتمام بشأنها ، ولذا فهو لا يغفل جانبها ، ولا ينكر أهميتها ، وإن هذا النص وحده لكاف في الدلالة على منزلة الألفاظ ، وشديد أثرها وتأثيرها في مثل هذه الفنون.

وللدكتور محمد أبو موسى كلام نفيس في هذا الموضوع ، ناقش فيه هذه المسألة مبيناً حفاوة عبد القاهر في الجانب الصوتي ، رفضاً في الوقت نفسه أن يكون عبد القاهر قد أنكر قيمة الرنين في مثل هذه المحسنات ، يقول : (ولا أتصور أن يكون عبد القاهر – وهو من هو في الحس باللمحة الدالة – قد أنكر هذه القيم الصوتية في بيان العربية ؛ لأنها جزء من جوهر بلاغة هذا اللسان ، ليس في الشعر فحسب ، وإنما في النثر أيضاً ، فقد تقرأ في نثر القدماء في الجاهلية والعصر الإسلامي ، وعصر بني أمية ، وبني العباس نثراً كأنه شعر في عدد كلماته وهيآتها وترجيعاتها ، وأهم من كل هذا القرآن الكريم الذي ذكر الرماني أن التلاؤم فيه – وهو النسق الصوتي لا غير – وجه من وجوه إعجازه.

نعم لقد أنكر عبد القاهر وغيره تكلف هذه الأحوال الإيقاعية التي ليس وراءها إلا شقشقات لسانية فارغة ، أما الكلام المطبوع الذي تجري فيه هذه العناصر

---

(١) الرسالة الشافية : ١١٧ ، عبد القاهر الجرجاني : طُبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، دارالمعارف ، القاهرة ، ط : ٤.

الصوتية على وجهها غير قصد إليها فهو من الحُسن الحَسن ، ولم ينكره أحد وإنما استشرف إليه كبار الكتَّاب ، وحذاق البيان)).[١]

فإذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك – فلِمَ لَمْ يُشِرْ عبد القاهر إلى هذا الجانب في حديثه عن فنَّي التجنيس والسجع؟ ولمَ قصر حديثه عن أثر هذه المحسنات في بناء المعنى؟ السرُّ في ذلك ، هو : باعث عبد القاهر في حديثه عن التجنيس والسجع ، فقد أورد ذلك في معرض الرد على من قَصَرَ أثر مثل هذه الأساليب على الجانب اللفظي والصوتي دون الالتفات إلى أثرها في بناء المعنى وظهوره ، ودون الالتفات إلى النظم الذي وردت فيه ، ودون الالتفات كذلك إلى المقام الذي تطلبها واستدعاها ، وكأنه مقصودة لذاتها من حيث هو تجنيس ، ومن حيث هو سجه ، ولقد رد عبد القاهر ذلك بكل ما أوتي لبيان تهافته وبطلانه ، وأفراغ جهده وطاقته في بيان هذه الأساليب، وأثرها في بناء المعنى ، وسعى سعياً حثيثاً لإظهار الجوانب المعنوية ، بل والنفسية في هذه الأساليب ، فرد حُسن هذه الأساليب إلى النظم ، وليس إلى شيء سواه، وهو في الوقت نفسه لا يغفل جانب اللفظ فيها ؛ لأن هذه المحسنات شأنها في ذلك شأن سائر الأساليب البلاغية تذوب داخل النظم ، وتسير في فلكه[٢] ، وقد أكد عبد القاهر هذه الحقيقة ، مبيناً الحسن الكامل في الكلام من التقاء اللفظ مع النظم ، مبيناً أن الكلام حينها يكون ((قد أتاه الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين)).[٣]

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني :٧١.

(٢) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي : ٤٠٨ ، د. عبد القادر حسين ، دار غريب ، القاهرة ، ١٩٩٨م.

(٣) دلائل الإعجاز : ٩٩ ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة،ط : ٣ ، ١٤١٣هـ.

كما أكد ذلك وقرره في موضع آخر حين قال: ((وإن هذه المزية ليست لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر في قلبك))[١] ، وقد ذكر الدكتور محمد أبو موسى تعليقاً نفسياً على هذه العبارة ، يقول : ((وليس معناه إهمال رنين البيان ونغمه ، وأنه لا يدخل في البلاغة، وإنما هو توجيه إلى استكشاف هذا الرنين وهذا النغم ، وان فائدته ليست هي التي تسمعها الآذان، وإنما في مخامرته للنفس ، وإيقاظه شجوها وحنينها)).[٢]

البديع في كتاب (دلائل الإعجاز) :

هذا ما يتعلق بحديث عبد القاهر عن البديع في كتابه (أسرار البلاغة) ، أما حديثه عنه في (دلائل الإعجاز) ، فقد جاء مقتضباً كذلك ، بل إن حديثه عن البديع في هذا الكتاب أقل بكثير عن حديثه عنه في (أسرار البلاغة) ، وله في ذلك العذر ، ولستُ في مقام الاعتذار لعبد القاهر؛ بل بيان السبب الذي دفعه إلى ذلك ، فقد كان مَعْنيًّا بنظرية النظم ، بإرساء قواعدها ، وترسيخ أصولها ومبادئها ، وقد سعى جاهداً لإقامة هذه النظرية بكل ما أُوتي ، فسلك في ذلك مسالك شتي في إثباتها ، والاستدلال لها فحيناً بالحُجة ، ومقارعةالشبهة بالشبهة ، وحيناً بالاستشهاد والتحليل ، فذكر من الأساليب البلاغية ما يخدم غرضه ، ويحقق هدفه ، ولذا ذكر من ألوان البديع ما يدلل به على نظرية النظم ، ويرسي قواعداها.

وسأورد له أيضاً في (دلائل الإعجاز) يؤكد هذه الحقيقة ويقررها ، وهو نص غني الدلالة ، مليء بالإشارات والإيحاءات المُتعلِّقة بالبديع ؛ ليتبين لنا من خلاله الوقوف على منهج عبد القاهر في تعامله مع البديع ،ونظرته له ، وقد عقد له فصلاً

---

(١) المصدر السابق : ٦٤.

(٢) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني : ٩٥.

عَنْوَنَ له بقوله (في النظم يتحد في الوضع ، ويدق فيه الصنع) ، يقول فيه ((واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ،ويغمض المسلك ، في توخي المعاني التي عرفت : أن تتَّحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن تحتاج في الجملة أن تضعها في النفس وضعاً واحداً ، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هنا فى حال ما يضع بيساره هناك ،وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لِمَا شأنه أن يجيء على الوصف حدٌّ يحصره ، وقانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى ، وأنحاء مختلفة ـ فمن ذلك أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزء معاً.

كقول البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى　　أصاخت إلى الواشي فلج بها الفجر

وقوله :

إذا احْتَرَبَتْ يوماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا　　تَذَكَّرَتِ القُرْبَى ففاضتْ دُمُوعُهَا

فهذا نوع :

وَبَيْنَا نِعْمةٌ إذ حَالَ بُؤْسٌ　　ويُؤْسٌ إذ تعقَّبه ثَرَاءُ

ونوع منه آخر قول سليمان بين داود القضاعى :

فبينا المرء فى علياء أهوى　　ومنحط اتيح له اعتلاء

ونوع ثالثا ، وهو ما كان كقول كثير :

وإني وتَهْيَامِي بِعِزَّةَ بعدما　　تَخَلَّيْتُ مما بيننا وَتَخَلَّتِ

لكا لْمُرْتَجِي ظِلَّ الغَمَامَة كلما　　تَبَوَّا منها للمقيل اضْمَحَلَّتِ

وكقول البحتري :

لَعَمْرُكَ إنا والزَّمَانُ كما جَنَـــتْ على الضعفِ المَوْهُوْنِ عاديةُ الأقوى

ومنه التقسيم ، وخصوصاً إذا قسمت ثم جمعت ، كقول حسان:

قَومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عَدُوَّهـــمُ أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سَجِيَّةٌ تلك منهم غير مُحْدَثَـــةٍ إنَّ الخَلائِقَ فاعلمْ شَرُّها البِـــدَعُ

ومن ذلك وهو شيء في غاية الحسن ، قول القائل :

لو أنَّ ما أنتمُ فيه يدومُ لكـــم ظننتُ ما أنا فيه دائما أبَـــدَا

لكنْ رأيت الليالي غيرَ تاركـــةٍ ما سَرَّ من حادثٍ أو ساءَ مُطَّـرِدَا

فقد سكنت إلى أني وأنكـــم سَنَسْتَجِدُّ خِلافَ الحالتينِ غَـدا

قوله: (سنستجد خلاف الحالتين غدا) جمع فيها قسم لطيف ، وقد ازداد لطفاً بحسن ما بناه عليه ولطف ما توصل به إليه قوله (فقد سكنت إلى أني وأنكم).

وإذ قد عرفتَ هذا النمط من الكلام ، وهو ما تتَّحد أجزاؤه حتى يوضع وضعاً واحداً ، فاعلم أنه من النمط العالي ، والباب الأعظم ، والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه.[1]

وقد تناول عبد القاهر في هذا المقطع بعضاً من المحسنات البديعية ، وقد جاء تناوله فريداً بديعاً ، تناولاً يرسم لنا المنهج ، ويبين لنا قيمة هذه المحسنات وأثرها في بناء نظرية النظم ، بل هو النظم في أعلى مستوياته ، وأرقى درجاته، ذلك النظم الذي يتحد في الوضع ، ويدق فيه الصنع ، فهو من النمط العالي ، والباب الأعظم ،

(١) دلائل الإعجاز : ٩٣.

الذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شي كعظمه فيه ، ولقد قرر عبد القاهر ذلك وأثبته من خلال الشواهد الشعرية التي ساقها لتلك المحسنات ، فهذان المحسنان — المزاوجة ، وصحة التقسيم — وإن كانا من المحسنات المعنوية في رأي من يرى هذا التقسيم ، ويأخذ به ، إلا أن عبد القاهر لم يلتفت إلى ذلك ، بل ولم يشر إليه لا من قريب ولا من بعيد ،فقد انصرفت عناية عبد القاهر ، واهتمامه الى بيان هذه المحسنات ، والإشارة على حسنها،وأثرها في بناء المعنى وظهوره في معرض تقديره لنظرية النظم ، وإرساء قواعدها ؛ إيماناً منه أنه مكمن الحسن ، وإليه يرجع الأمر كله ، ومن هنا يتضح منهج عبد القاهر فى تناوله للمحسنات البديعية ونظرته لها.

سبب اقتصار عبد القاهر الجرجانى على البديعية القليلة فى كتابية :

وبعد فهذه أبرز المواضع التى تناول فيها عبد القاهر بعضاً من المحسنات البديعية ، وتلك طريقته ، وذلك منهجه في تناوله لها ، ونظرته لها ، وقبل أن أطوي هذه الصفحة ، وأنتقل منها إلى ما بعدها ، وإتماماً لهذه المواضع ، وإحاطة به أختم هذا الأمر بسؤال له ارتباط بما نحن فيه ، وعلوق به ، وهو : سبب اقتصار عبد القاهر على هذه المحسنات البديعية في كتابيه ، دون غيرها.

والسبب في ذلك أن ثمة غايات لعبد القاهر يسعى إليها ، وهدفاً منشوداً حرص على تحقيقه ، وقد كانت هذه الغاية التي يسعى إلى تحقيقها هي : نظرية النظم ،ولذا فقد جعلها الغاية ، ونظر إلى ما سواها على أنها وسيلة ، تكون خدمة لإظهار تلك الغاية وتحققها ، ومن هنا جاءت نظريه للبديع على هذا الأساس ، ووفق هذا التصوير ، ولذا ربطه بالنظم ربطاً شديداً ، وجعله ملتصقاً به التصاقاً كبيراً.

ولذا فقد أبدأ عبد القاهر وأعاد فى تقرير هذه الحقيقة وتأكيدها في كتاباته كلها، كما برزت كذلك في الموضوعات التي عرض لها في علم البديع ، ومن هنا يتبين لنا سبب اقتصاره على بعض ألوان البديع دون غيرها ، ولذا ((فلم يعرض لكل ما عُرف قبله من أصباغ البديع التي طرقها من تقدموه ، بل اختار منها ألواناً استدعاها غرضه من هذين الكتابين استدعاء قوى ، وراح يضفى عليها من سحر بيانه ثوباً قشيباً ، باينت به ما لبثته على يد غيره ممن تقدموه أو اخلفوه)).[١]

وفي هذا دلالة واضحة على أنه كان ((يسعى إلى تحقيق غايات غير تلك الغايات التي سعى إليها البلاغيون من قبل ومن بعد ، إنه لا يعنيه أبداً سرد ألوان البديع ، أو إضافة إليها، والإدلال علينا بهذا الاكتشاف ، و لايهمه أبداً تقسيم هذه الألوان إلى طائفة تنتمي إلى اللفظ ، وأخرى تنتمى إلى المعنى ، فهو ضد هذه الثنائية العجيبة منذ البداية...كل ذلك يرفضه عبد القاهر رفضاً قاطعاً في عبارات حاسمة ، بلغت درجة كبيرة من العنف في بعض الأحيان))[٢].

فهذه هي الغاية التي نصبها عبد القاهر بين عينيه ،وسعى إليها ، وأجتهد في إثباتها وتحقيقها ، ولذا فقد نافح عن هذه الفكرة ، وذاد عنها بكل ما أتى ، فقدح زناد فكره، ((وأمسك بقلمه ؛ ليصحح أوهاماً ، لا ليشرح مسائل))[٣] ، ومن أجل هذه الغاية وتحقيقها جاء تناول عبد القاهر للبديع تناولا فريداً بديعاً ومن هنا فقد استقام لعبد القاهر الأمر فبين السبيل وبين الطريق ولهذا المنهج الذى ارتضاه عبد القاهر

---

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية : ٢٢١ ، د. أحمد إبراهيم موسى ،دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ

(٢) البديع المصطلح والقيمة : ٥٧.

(٣) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني : ١٣٥.

لنفسه وبهذه الطريقة الفريدة التي أخذ بها ،وسار عليها بزَّ أقرانه ،وتميزت كتاباته ((على معظم كتب البلاغة الأخرى التي ظهرت بعده واقتصرت على سرد القواعد بعبارات اصطلاحية تأباها بلاغة الأساليب العربية التي لا تذكر من الشواهد الأقلة إلا القليل النادر الذى أولى به السابق إلى اللاحق وكأنه الشاهد الوحيد لهذا الفن، ولا يوجد شاهد سواه))[1].

وبعد : فهذا هو البديع عند عبد القاهر ، وذلكم هو موقفه منه ، ونظرته له ، وذلك هو منهجه المتميز في تعامله معه ، وذلك هو القدر الذي تنال فيه البديع،وذلك هو البعث في استخدام عبد القاهر للبديع ، وسرّ اقتصاره على بعض فنون دون الفنون الأخرى التي عرفها العلماء السابقون عليه، وذكروهافي مؤلفاتهم ، فصار البديع سبيلاً ووسيلة لدعم نظرية النظم وتأكيدها ، ومنه يتجلى أثر البديع وقيمته البلاغية ، كما يتجلى معه — كذلك — إسهامه الكبير في النظم الذي يرد فيه.

وهكذا عاش البديع في هذه الحقبة حراً طليقاً ، فقد حلَّق في سماء النصوص و أبدع فيها ، ولم يُكَبَّل بالتقسيمات ، أو يقيد بكثرة التفريعات،وكذلك عاشت البلاغة بعامة في هذه الحقبة ، و ((ظلت فنون البلاغة منذ أن كتب فيها العلماء ، وألفت فيها المؤلفات حتى عصر الزمخشري لاتعرف تقسيماً ولا تمييزاً)).[2]

---

(١) في تأريخ البلاغة العربية : ٢٥٧.

(٢) علم البديع : ١١٣.

بداية ظهور التقسيمات في البحث البلاغي:

فإذا كان الأمر – وهو كذلك – فكيف انحرف مسار البحث البلاغي بعد عبد القاهر ؟ وما سبب ذلك الانحراف؟ وما سبب ذلك التغيير الذي طرأ على علم البديع؟ وكيف آل أمر البديع الى ما نراه الآن فى وقتنا الحاضر؟ وكيف وقع البديع ضحية التقسيمات والتفريعات والسرد المتتابع لفنون البديع دون الوقوف معها لإظهار أسرارها البلاغية ، ونكتها البيانية، ودون الوقوف أو الإشارة عليها أقل تقدير الى اثر هذه الفنون فى إظهار المعنى وبنائه ، ودون ربطها بالسياق الذي وردت فيه من خلال إيراد الشواهد المتنوعة والمتعددة لها؟!

فأقول إجابةً عن هذه التساؤلات : كان عبد القاهر علامة فارقة في تأريخنا العربي ، وفي تأريخ البلاغة على وجه الخصوص ، فقد كان شامة بين العلماء السابقين عليه ، واللاحقين له ، كما كان حداً فاصلاً ، إذ تمايزت البلاغة على يده ، وارتفاع شأوها ، وعلا شأنها فبلغت مرحلة النضج والازدهار ، ورفلتْ بأحلى حُلَّة ، وتزينت بأجمل الثياب ، وتعرضت بأبهى الصور ،ولكن المصاب الجلل أننا بعد عبد القاهر وصنيعه ((نطوي صفحة مشرقة في تأريخ علوم البلاغة بعامة ، وعلم البديع بخاصة،

ونودِّع عملاً جمع بين الحسنيين ، واستحوذ على الفضليين ، فكان شعاره الجمع بين البديع علماً وعملاً)).[١]

وبعد عبد القاهر تغير مسار البحث ، وتجلى هذا التغيير وظهر في مباحث علم البديع ومسائله، شأنه في ذلك شأن الاليب البلاغية الأخرى ، والسبب في ذلك : ظهور اتجاه فلسفي في التأليف البلاغي، مال بالبلاغة نحو التعقيد والتلخيص ، وألإكثار من المصطلحات والتعريفات والتقسيمات ، وذكر الحدود ، وبيان القيود ، وكثرة الضبط والحصر القائم على التقسيم العقلي المنطقي ، وكان ذلك على حساب التحليل الأدبي للشواهد ، وعدم تذوقها ، والنظر في أسرارها البلاغية ، ودون ربطها بالسياق الذى جاءت فيه وبذلك قضي علي الروح الأدبية التي رأيناها في صنيع عبد القاهر في كتابيه.[٢]

منهج المتأخرين في التعامل مع البديع :

ذكر الدكتور محمد أحمد عثمان منهج المتأخرين في التعامل مع البديع، فذكر عنهم منهجاً بعيداً كُلَّ البعد عن الروح الأدبية ، بعيداً كل البعد عما كانت عليه البلاغة في عصورها الأولى ، بعيداً كل البعد عن منهج عبد القاهر ، ونظرته للبديع ، وقد بيِّن الأسس التي يقوم عليها هذا المنهج قائلاً: ((وكان منهجهم في بحث البديع يقوم على الأسس الآتية:

١- الإكثار من المصطلحات والتفريعات والتقسيمات.

---

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية : ٢٤٠.

(٢) انظر : علم البديع : ١٠٩ ، البديع تأصيل وتجديد ١١ ، البديع وإعجاز القرآن: ٢٠.

٢- إغفال التحليل الأدبي للشواهد ، وعدم تذوقها والموازنة بينها.

٣- الإقلال من الشواهد الأدبية.

٤- عدم ربط الصورة الأدبية البديعية بسياقها العام.

٥- إغفال النظر عن وظيفة الصورة البديعية.

٦- عدم التأمل فى كشف السر البلاغى للصورة البيديعية.

٧- إغفال النظر في خصائص الصورة البديعية في القرآن.[1]

ولأجل تأكيد هذا القول ، وإثبات صحته أذكر ما أصاب البديع من جمود، ومن تحول في مسار البحث فيه بعد عبد القاهر ، مبينا في الوقت نفسه منشأ هذا التقسيم في الدراسات البلاغية ، فقد بدأ هذا الانحراف أول ما ظهر على يد الإمام الرازي في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، فقد كان أول قَعَّد العلوم البلاغية ، ورتَّب مسائلها ، وقسَّمها تقسيماً عقلياً منطقياً بعيداً كل البعد عن الروح الأدبية القائمة على تحليل الشواهد ، وربطها بالسياق الذي وردت فيه ، وبيان أثرها في نظم الكلام وتراكيبه.

ولقد تلقّف الإمام السكاكي صنيع الإمام الرازى ، وزاده بسطة ، فأغرق البلاغة في كثرة التقسيمات ، والتفريعات ، وفى بيان الحدود والمصطلحات، وذكر الاحترازات ، يهمنا في ذلك : طريقة تناوله لفن البديع، فبعد أن فرغ من الحديث عن علم المعاني ، وعن علم البيان قال:

---

(١) البديع وإعجاز القرآن : ٢٠.

((وإذا تقرر أنَّ البلاغة بمرجعيها،وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فهاهنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يُصار إليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها ، وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ))[1] ، ثم أخذ بسرد المحسنات المعنوية ، وذكر بعضاً من الشواهد لها ، ثم المحسنات اللفظية، وذكر شواهد لها ، وقد كان ذلك كله سرداً لها ، دون الوقوف معها ؛ لبيان أسرارها البلاغية وبيان أثرها في نظم الكلام.

ثم جاء بدر الدين ابن مالك فقرر هذا التقسيم ، وأرسى قواعده ، حين قسم البلاغة إلى علوم ثلاثة ثم زاد الأمر سوءاً وتقسيماً حين قسم البديع محسنات معنوية وأخرى لفظية.[2]

وكذلك فعل الخطيب القَزْويني في تلخيصه لـ "المفتاح" ، فقد سار على نهج السَّكاكي، واقتفى أثره في تقسيم البديع إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية ،وإن كان يفضل عليه بكثرة الشواهد والإشارة – على استيحاء – إلى بعض أسرار هذه المحسنات البديعية.

ومن ثم استقر الأمر على هذا الحال ، فاقتفى الآخر نهج الأول ،وسار على دربه، وتتبع خطاه ، فصار تقسيم البديع أمراً مقرراً لا يقبل شكاً ولا نقاشاً ، نرى ذلك لدى شُرَّاح التلخيص[3] ،ومن دار في فلكهم ، وسار في ركابهم.

---

(١) مفتاح العلوم : ٤٢٣ ، للسكاكي ، تحقيق : نعيم زرزور ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، ط:٢ ،١٤٠٧هـ

(٢) انظر : المصباح في المعاني والبيان والبديع : ١٩٥ ، لبدر الدين بن مالك ، تحقيق : د. حسنى عبد الجليل ، مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة.

(٣) أنظر شروح التلخيص ٢٨٢/٤ ، دار الباز ، مكة المكرمة.

ولذا فإن قبول هذا التقسيم والأخذ به إسهام منا في جمود البلاغة العربية، والبعد بها عن روحها الأدبية التي كانت عليها في عصورها الأولى زمن عبد القاهر ومن قبله من العلماء الذين اعتمدوا على الذوق ، وأعلوا من قدره في تحليل النصوص ، دون الاحتفال أو الالتفات إلى هذه التفريعات ، وتلك التقسيمات.

٣- في تقسيم البديع عودة إلى قضية اللفظ والمعنى:

كما أن في تقسيم البديع إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية عودة بنا إلى قضية اللفظ والمعنى ، تلك القضية التي شغلت جزءاً كبيراً من نقدنا العربي ، كما شغلت كثيراً من النقاد، فكان منهم من يُعْلي أمر اللفظ على حساب المعنى ، ويقابله من يحتفل بالمعنى احتفالاً كبيراً دون الاعتداد باللفظ ، أو الالتفات إلى أثره ، وقيمته في العمل الأدبي وقد ركب كلا الفريقين – بنظرتهم تلك – مَتْنَ الشَّطَط ، وقد ظل الحال على ما هو عليه ، إلى أن جاء عبد القاهر ، وقضى على هذه الثنائية ، ونقضها عروة عروة،وأقام على أنقاضها نظرية النظم ، فآل إليها الأمر والفضل ، وأعاد الأمور إلى نصابها بعد أن أعطى كل ذي حق حقه من اللفظ والمعنى.

ولذ فإن في تقسيم البديع نكسة في حمأة اللفظ والمعنى مرة أخرى ، وعودة بنا إلى هذه القضية التي اندثرت ، وانطمست معالمها ، بعد أن تمايزت الأمور ، وظهرت الحقائق.

إذن في هذا التقسيم فصل بين اللفظ والمعنى ، ولا يخفى خطل هذا الأمر ، بل وعدم إمكانيته ، فهو لا يتأتى أبداً ، ولا يمكن تحقيقه ؛ وذلك أن اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به ارتباط الروح بالجسد، يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه[1] ، وأنى

(١) انظر العمدة في محاسن الشعر وآدبه : ٢٥٢/١ ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : د. محمد قرقزان ، دار المعارف ، بيروت ، ط ١، ١٤٠٨هـ

لنا . نفصل الروح عن الجسد؟! أو أن نحدد مكان الروح من الجسد؟! ومن هنا يتبين ارتباط بعضهما ببعض، بل إن كل واحد منهما مكمل للآخر ؛ وذلك أن جمال ألفاظ وحدها متعلق بالمعاني، ومرتبط بها ، كما أن حسن المعاني وبلاغتها كامن في وجودها في الألفاظ والتراكيب ، وهذه هي النظرة التكاملية ، فالحسن في النص الأدبي لا ينفرد به واحد دون الآخر ، بل يشاركه فيه كل من اللفظ والمعنى فيما بينهما . ويتضافران معا لإظهار حسن الكلام وإبرازه ، فكيف لنا — والحالة هذه — أن نقبل بهذا التقسيم ، وفيه الفصل التام بين كل من اللفظ والمعنى؟!

ومن الأمور الموجبة لرد هاذ التقسيم ورفضه أنه تقسيم افتراضي قائم في عقل من أخذ به ، وسار عليه ، وإلا فإن هذا التقسيم لا وجود له في الواقع عند تحليل النصوص، والنظر في بلاغتها ، وسرِّ جمالها ، فإذا كان الأمر كذلك فلمَ الاعتداد به وأخذه؟! ولمَ يُقسم البديع في ضوئه وهو افتراضي اقتضته القسمة العقلية المأخوذة بالتقسيمات والتفريعات ، والعيش تحت سيطرة التعريفات ، وذكر الحدود والمحترزات، والبلاغة براء كل البراءة من هذا كله.

موقف العلماء المعاصرين من تقسيم البديع :

وأحب أن أبيِّن في خاتمة هذه الدراسة أني لست بدعاً في هذا الرأى ، فثمة كثير من العلماء المعاصرين من رد هذا التقسيم ، ورفضه رفضاً قاطعاً ، فسأذكرهم ، وأبين موقفهم من هذا التقسيم ؛ وفي ذلك تأكيد لموقفي من هذا التقسيم ونصرة له ، كما أن فيه تقوية لهذه الدراسة ، وإحكاماً لها.

فمن هؤلاء العلماء : الدكتور : أحمد إبراهيم موسى وهو من المتخصصين في البديع ،وناقشوا كثيراً من قضاياه ، ومحصها تمحيصاً دقيقاً . يقول الدكتور أحمد بعد مناقشته لمسألة تقسيم البديع إلى محسنات معنوية ، وأخرى

لفظية: ((هذا ولا يحل الأسلوب محله من البلاغة والقبول ، ولا يصادف موضعه من الخلابة،واستلاب العقول إلاّ إذا تلاقى في تقديمه اللفظ والمعنى جميعاً ، واستوفى كل واحد منهما نصيبه من الحسن، واستحوذ اللفظ قسطه من الجمال ، وعلى ذلك درج عقلاء النقاد في التقديم والحديث))[1].

ومن العلماء كذلك : الدكتور : أحمد محمد علي ، فقد ذكر في مقدمة كتابه (دراسات في علم البديع) أنه كان يريد أن يدرس قضية التحسين اللفظي ، والتحسين المعنوي ، والمقاييس التي قام على أساسها هذا الفصل ، وقد ذكر – أيضا – أنه لن يلتزم بهذا التقسيم في كتابه.[2]

ومن العلماء كذلك الدكتور : عبد الواحد علام ، فقد كتب في البديع وذكر كثيراً من القضايا المتعلقة بمصطلح البديع وقيمته ، وقد ذكر موقفه الواضح والصريح من تقسيم البديع ، يقول : ((ونود أن تقرر من البداية أننا لا نوافق على تقسيم تلك الفنون إلى فنون يتعلق بعضها بالمعنى ، وأخرى تتعلق باللفظ ؛ لأن هذه القسمة لم يَعُدْ لها وجود في عالم الأدب اليوم ، بل نعتقد أنه لم يكن لها وجود حقيقي يوما ما ، على الرغم من إثارة ما سمُي بقضية (اللفظ والمعنى) في النقد العربي القديم ، ومحاولة بعض المعاصرين تصنيف النُّقاد العرب القدماء إلى طوائف ، بعضها يتعصب لهذا ، وبعضها يتعصب لذلك ، وبعضها يقف بَيْن بَيْن، وهو تصنيف لم يكن دقيقاً في جملته وتفصيله ؛ لأنه قام على غير أساس))[3].

---

(١) الصبغ البديعي : ٥٠٩.

(٢) انظر دراسات في علم البديع : ٨.

(٣) البديع المصطلح والقيمة : ٧٠.

ومن العلماء كذلك : الدكتور : بسيوني عبد الفتاح فيود ، فله كثير من المؤلفات والدراسات البلاغية تناول فيها القضايا البلاغية بالتمحيص والتدقيق ، وقد كتب في البديع ، وناقش في كتاباته البديع مناقشة تأريخية وفنية ، وقد تطرق لقضية تقسيم البديع ، فذكر رأيه في هذا المسألة بكل صراحة ووضوح ، كما بيّن رفضه القاطع له ، يقول : ((كما أننا لا نوافق على تقسيم هذه الفنون إلى محسنات معنوية ، وأخرى لفظية ؛ إذ لا يتأتى الفصل بين اللفظ والمعنى ، فالألفاظ أجساد المعاني ، ولا يظهر للفظ مزية إلاّ من خلال النظم الذي يسلك فيه وعندما نتأمل الألوان البديعية التي وضعت في القسم المعنوي ، ثم ننظر إلى ألوان القسم اللفظي يتضح لك ضعف هذا التقسيم ، إذا لا تجد فرقاً بين تلك الألوان، أو بمعنى آخر لا تلمس فرقاً بين الحسن الذي يضيفه اللون من هذه الألوان على المعنى ، وتكتسبه الصياغة والعبارات ، والحسن الذي يضيفه اللون الاخر ، ولذا فلن نعتد بهذا التقسيم ، وسيكون هدفنا — كما قلت — تجلية هذه الألوان، والكشف عن دقائقها ، وإبراز مكانتها البلاغية)).[1]

ومن هؤلاء أخيراً : الدكتور : عبد الفتاح لاشين ، فقد عرض لهذا التقسيم ، وذكر خطأه على البلاغة العربية ، وخطره كذلك ، ثم بينّ موقفه منه ورفضه ، وحكمه عليه ، مبيناً أن هذا التقسيم ((لم يخالفه التوفيق ؛ لأن ذلك فصل للجسم عن الروح ، والروح عن الجسم ؛ وذلك لأن جمال الألفاظ في تعلقها بالمعاني ، وحسن المعاني في وجودها في تركيب ، وتلك النظرة التكاملية الفنية كثيراً ما أكدها عبد القاهر الجرجاني، فالحسن الحقيقي للكلام لابد أن يكون من اللفظ والمعنى ، ويشارك فيه كل من اللفظ والمضمون وليس في واحد منهما فقط)).[2]

---

(١) علم البديع : ١٣٣.

(٢) البديع في ضوء البديع القرآن : ٢١.

وقد تعمدتُ أن أذكر هؤلاء العلماء وموقفهم من تقسم البديع ؛ للإشارة – أولاً– إلى أني لم انفرد بهذا الرأي ، فلست بدعاً في ذلك تقوية لهذا الرأي ارتضيته ، وذهبت إليه ، والأمر الآخر – وهو المهم – الذي أريد أن أصل إليه ، وأقرره في هذا المقام ، هو أنه بما أن هذا التقسيم مرفوض من قبل كثير من العلماء المعاصرين ، وبما أن له خطراً على البلاغة العربية ، فلمَ الأخذ به والتمسك به ؟! وكأن هذا التقسيم ضربة لازب ينبغي الأخذ به ، والسير عليه ، وليس الأمر كذلك ، ولذا فإنى أدعو في هذا المقام إلى إعادة قراءة البلاغة العربية قراءة بعد قراءة، ولا ضير من هذه القراءة ، بل ولا خطر عليها أن يتم ذلك ، بل في ذلك إنما لها وتزكية، وما أجمل أن تتخفف البلاغة من كثير من تلك التفريعات والتقسيمات التي أثقلت كاهلها ، وفي الوقت نفسه شوهت حسنها ، وقضت على جمالها ، وما أجمل ان نعود ببلاغتنا إلى عصورها المشرقة الأولى عهد عبد القاهر الجرجاني ومن قبله من العلماء أولئك العلماء الذين انفردوا بالبحث العلمي ، وتميزوا في الوقت نفسه بحسن العرض الأدبي لمباحث علم البديع.[1]

ولذا فما أعنانا عن هذا التقسيم ، بل وما أحرى البلاغة أن تنأى عن مثل هذا التقسيمات ، وتلك التفريعات ، وما أحرانا – كذلك – أن نخلص البلاغة مما يشوبها، ويكدر صفوها ، وأن نعود بها إلى عهودها المشرقة ، ونسلك بها مسلك العلماء الكبار في تناولهم لفن البديع ، فقد تناول المتقدمون من علماء البلاغة الفنون البديعية ، فتحدثوا عن جمالياتها، وعن أثرها في المقامات التي ترد فيها ، وعن قدرتها الفائقة في تحقيق الأغراض المنوطة بها ، دون أن يقسموا البديع ، ودون أن

---

(١) انظر : الصبغ البديعي :٢٥١.

يتغلغلوا في الجزئيات والتقسيمات ،وإنما توجهوا للنصوص، وأفرغوا عملهم وجهدهم في تحليلها ، وبيان أثرها ، وبلاغتها في سياقاتها ، كما ترى ذلك جلياً عند عبد القاهر الجرجاني في تناوله لعلم البديع في كتابيه ، فرأينا منهجه في ذلك ، فقد خلّص كتاباته من تلك التقسيمات والتفريعات ، وخلا كلامه من ذلك تماماً فلم يشر من قريب ولا من بعيد إلى هذا التقسيم، ولذا فإن هناك مباينة تامة بين تناول عبد القاهر لعلم البديع وبين تناول المتأخرين له.

الخاتمة

وبعد : فمن خلال هذه الدراسة العلمية المتأنِّية ، وبعد الوقوف على منهج عبد القاهر الجرجاني في تعامله مع البديع ، وبيان نظرته له ، وبعد هذه المناقشة لتقسيم البديع إلى محسنات معنوية ، وأخرى لفظية ، فثمة نتائج أمكن الاهتداء إليها ، ومن أبرزها ما يأتي:

أولاً:- أن تقسيم البديع على محسنات معنوية ، وأخرى لفظية تقسيم غير مُوفَّق ولا سديد ، لم يحالفْه التوفيق ولا النجاح ؛ وذلك لِما فيه من عيوب وقصور ، ولِما فيه من مجانبة للروح البلاغية العربية في عصورها الأولى.

ثانياً:- أن هذا التقسيم افتراضي قائم في عقل من أخذ به ، وسار عليه ، ولا وجود له عند تحليل النصوص ، والنظر في بلاغتنا ، وسرِّ جمالها.

ثالثاً:- أن في هذا التقسيم عودة بنا إلى قضية اللفظ والمعنى ، تلك القضية التي شغلت جزءاً كبيراً في نقدنا الأدبي ، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني فقضى على تلك الثنائية ، ونقضها عروة عروة ، ومن ثَم أقام على أنقاضها نظرية النظم.

رابعاً:- أن ثمة كثيراً من العلماء المعاصرين ردُّوا هذا التقسيم ، ولم يأخذوا به في مؤلفاتهم البلاغية ، مبينين في الوقت نفسه عوار هذا التقسيم ، وخطره على البلاغة العربية.

خامساً:- أن هذا التقسيم نتاج الاتجاه الفلسفي الذي ظهر في التأليف البلاغي ، ذلك الاتجاه المأخوذ بكثرة التقسيمات والتفريعات ، والواقع تحت سيطرة التعريفات، وذكر الحدود والمحترزات ، ولذا راينا وجود هذه التقسيم في كتب المتأخرين من علماء البلاغة في بدايات القرن السابع عند الإمام السكاكي

المتوفي سنة ٦٢٦هـ ، على حين خلت الدراسات البلاغية الأولى من الإشارة إلى هذا التقسيم فضلاً عن الأخذ به.

سادساً :- أن دراسة عبد القاهر الجرجاني لعلم البديع من أفضل الدراسات ، كما أن منهجه في ذلك من أفضل النهوج وأروعها ، وقد درس من البديع ما يخدم فكرته في تأسيسه لنظرية النظم ، وتأصيله لها ، وقد خلا كلامه تماماً من هذا التقسيم أو الإشارة إليه ، بل هو على النقيض من ذلك ، إذ نحا باللائمة على أنصار كل من اللفظ والمعنى.

ولذا فإنى أوصي — فى هذه خاتمة هذه الدراسة — أن نقتفي أثر عبد القاهر في دراسته للبديع ، وأن نلتزم بالمنهج الذي رسمه لنا في تعامله مع البديع ، وأن نفيد من هذا المنهج في الدراسات البلاغية كلها.

كما أوصي بأن نعود ببلاغتنا العربية إلى عهودها المشرقة عهد عبد القاهر ومَن قبله من العلماء ، وألاَّ نقيد بلاغتنا بآراء المتأخرين ، نقيد بل مما كتبوا ، وننطق منه ، دون التقيُّد به ، والوقوف عنده.

ومن التوصيات — أخيرا — معاودة قراءة البلاغة مرات ومرات ؛ من أجل تخليصها مما شابها من كثرة التقسيمات والتفريعات، وفي ذلك إبداع للبلاغة ، وإطلاق لسراحها وأسرها مما أثقل كاهلها وشَيَّنَها.

والله من وراء القصد

فهرس المصادر والمراجع

١- أثر النحاة في البحث البلاغي ، د. عبد القادر حسين ، دار غريب ، القاهرة ، ١٩٩٨م.

٢- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط ١، : ١٤١٢هـ.

٣- الإيضاح ، الخطيب القزويني ، مكتبة إحياء الكتب الإسلامية ، بيروت (د-ت)

٤- البديع تأصيل وتجديد ، د. منير سلطان ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٦م.

٥- البديع في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ط:٥، ١٩٩٧م.

٦- البلاغة الاصطلاحية،د. عبدة عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة (د-ت).

٧- البلاغة العربية : تاريخها مصادرها مناهجها ،د. علي عشري زايد ، مكتبة الشباب، القاهرة ،١٩٨٢م.

٨- البديع المصطلح والقيمة ، د.عبد الواحد علام ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٩٢م.

٩- البديع من المعاني والألفاظ ، د.عبد العظيم المطعني ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة، ط: ٣، ١٤١٠هـ.

١٠- البديع وإعجاز القرآن د. محمد أحمد عثمان ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة، ط :١ ،١٤١١هـ.

١١- دراسات في علم البديع د. احمد محمد علي ، مطبعة الأمانة ، مصر ط:١ ، ١٤١١هـ.

١٢- دراسات في علم المعاني والبديع ، د.عبد الفتاح عثمان ، مكتبة الشباب ، القاهرة (د-ت).

١٣- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط٣، : ١٤١٣هـ.

١٤- ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق : د. سيد حنفي حسنين ، دار المعارف ، مصر (د-ت).

١٥- الرسالة الشافية ، عبد القاهر الجرجاني - طُبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف ، القاهرة ، ط:٤.

١٦- شروح التلخيص، نشر أدب الحوزة، توزيع: مكتبة دار الباز / مكة المكرمة (د-ت).

١٧- الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د. أحمد إبراهيم موسى ، دار الكتاب العربي، القاهرة ، ١٣٨٨هـ.

١٨- علم البديع : دراسة تأريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار ، القاهرة / ط :٢ ، ١٤١٨هـ.

١٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : د. محمد قرقزان، دار المعرفة ، بيروت، ط:١ ، ١٤٠٨هـ.

٢٠- في تأريخ البلاغة العربية، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية،بيروت (د-ت).

٢١- لسان العرب ، لابن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط :٣ ، ١٤١٣هـ.

٢٢- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة القاهرة ، ط:١ ،١٤١٨هـ.

٢٣- المصباح في المعاني والبيان والبديع ، لبدر الدين بن مالك ، تحقيق : د. حسني عبد الجليل يوسف ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، مصر(د-ت).

٢٤- مفتاح العلوم ، للسكاكي ، تحقيق : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط:٢ ، ١٤٠٧هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة.	
هدف هذه الدراسة وغرضها.	
المراد بالمحسنات المعنوية ، وعلامتها.	
المراد بالمحسنات اللفظية ، وعلامتها.	
أسباب رفض تقسيم البديع.	
المعني اللغوي للفظة البديع.	
المعني الاصطلاحي لعلم البديع.	
ليست لتقسيم البديع وجود في عصر ازدهار اللغة وتألقها.	
منهج عبد القاهر في تعامله مع البديع.	
البديع في كتاب (أسرار البلاغة).	
موقف عبد القاهر من قضية اللفظ والمعنى.	
منهج عبد القاهر في تعامله مع : التجنيس والسجع.	
البديع في كتاب (دلائل الإعجاز).	
سبب اقتصار عبد القاهر على المحسنات البديعية التي ذكرها في كتابيه.	
بداية ظهور التقسيمات في البحث البلاغي.	
منهج المتأخرين في التعامل مع علم البديع.	
في تقسيم البديع عودة إلى قضية اللفظ والمعنى.	
تقسيم البديع أمر افتراضي لا وجود له في تحليل النصوص.	
موقف العلماء المعاصرين من تقسيم البديع.	
الخاتمة.	
فهرس المصادر والمراجع.	
فهرس الموضوعات	